أن يُثكل أمه ؛ أو يوتم ولده ، أو يرمل زوجته ، فليلقنى وراء هذا الوادى ! »

قال على رضى الله عنه : فما اتبعه إلا قوم من المستضعفين ، علمهم ما أرشدهم ، ثم مضى لوجهه

— ٥ —

سيقول قائل : ما لعمر يعلن هجرته ، ويمشى على رؤوس الأشهاد من صناديد قريش ، والنبى صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر رضى الله عنه يهاجران مستخفيين ؟ أيكون عمر أشجع من النبى ومن أبى بكر ؟

لا والله ، ما هو بأشجع منهما ، ولقد وقف عمر بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم وهو بعد لم يسلم ، ولم يجىء إلا ليقتله ، فلما أمسك بتلابيبه ونتره ، سقط على الأرض ، على قدم النبى ، وهو يرتعد من هيبته صلى الله عليه وسلم . وكان الصحابة — وفيهم عمر — إذا جد الجد ، وحمى الوطيس ، ودارت رحى الحرب ، استتروا بالنبى صلى الله عليه وسلم واحتموا به . ولما كانت الردة ورمت العرب عن قوس واحدة ، وخاف الصحابة وخاف عمر ، وأرادوا المسالمة والملاينة ، قام أبو بكر وحده فى وجه العالم وسارعه حتى صرعه . فكان عمر يعرفها له أبداً ... فعلام إذن هاجر عمر جهاراً نهاراً ؛ وهاجرا مستخفيين ؟

إن فى الأمر لسراً ، هو غير الشجاعة والجبن ، ذلك أن القائد العام عند ما ينتقل من جبهة من جبهات الحرب الى جبهة أخرى ، لا يقف فى الطريق على عدو ، ولا يلقى حرباً ، وإذا رأى نفراً من الأعداء ، يستتر منهم ، وينأى عنهم ، لأنه إذا سلك سبيل الشجاعة الساذجة ، وأقبل عليهم يقاتلهم ، ضيع الجيش الذى ينتظره ، ولا يعمل إلا به ، وخسر المعركة الكبرى لينتصر على نفر من الأعداء فى معركة على الهامش ، ثم إن فراره لا يعد جبناً ولا عجزاً ، وإقدامه لا يعد شجاعة ولا استبسالا

ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم القائد الأكبر ، لا فى حرب قريش أو هوازن — فما قريش ؟ وما هوازن ؟ ولكن فى حرب الشرك والجهل والظلم ، فى الحروب التى تمتد أبدا بين الحق والباطل ، فلا مدافع عن الحق قوم إلا كانوا تحت راية محمد ، فهل يدع مهمته الكبرى ، لينتصر على نفر من قريش ؟

ذلك هو سرّ الهجرة

(لم ينته الفصل)

على الطنطاوى

٢ — جامعة الاسكندرية *

بقلم الأديب ابراهيم جمعة

علماء الجامعة فى عصرها الأول — فليتاس القوصى — زنودوتس — زيارة ميناندر الأثينى وافتتاح مسرح الاسكندرية — اكتشاف فيلون للبحر الأبيض الجنوبى — دراسة مانيتو وتيموثيوس وهيكاتاس للعقائد المصرية القديمة — اقليدس وهيروفيلوس — سوتر يكلف بالدراسة والتصنيف آخر الأمر — قيمة كتاباته — الفن — أخذ الايطاليين عن الاسكندريين

يميل الباحثون الألمان إلى نسبة هذه الجمهرة من العلماء إلى بطليموس الأول المعروف باسم بطليموس سوتر ، وهو الذى يعتبره « سسميل » صاحب الفضل الأوفى فى خلق حركة فكرية أدبية علمية فى الاسكندرية قام هو بحمايتها ، وترأس مجالسها ، وأصغى إلى المناقشات الشديدة الاحتدام التى خلت فى بعض الأحايين من الفائدة العلمية ، فأصبحت جدلاً شخصيا لا طائل تحته

عهد بطليموس سوتر بتربية ابنه « فيلادلف » إلى عالم ذاع صيته فى ذلك العصر هو فليتاس القوصى ، وهو شاعر ينسب إليه أول مجهود أدبى عرفته الاسكندرية فى الشعر الرثائى ، بل أول مجهود عرفه العالم أجمع من هذا النوع من الشعر ، وهو الى هذا من أشهر علماء اللغة الاغريقية الذين صنفوا فيها ، ووضعوا لها موسوعة كبرى حوت كل مصطلحاتها

هذا وقد تابع زنودوتس البيزنطى التأليف والتصنيف فى قواعد الاغريقية ، وقام بجهد يشكر فى مراجعة مخلفات « هوميروس »

ويحتمل أن يكون بطليموس سوتر هو المؤسس لمسرح الاسكندرية ، وأن تكون دعوته « لميناندر الأثينى » بقصد حضور حفلة افتتاح المسرح الكبير وشهود بعض رواياته التى وضعها فى أثينا تمثل فى الاسكندرية ؛ وقد كانت زيارة ميناندر للاسكندرية تطويقاً لجيد الجامعة بأثمن درر العصر ، واعترافاً بالمكانة الناشئة والنجاح الظاهر الذى صحب جهود البطالسة الأوائل فى توفير جو علمى من الطراز الأول لمدينتهم الجديدة

ووكل سوتر إلى أمير البحر « فيلون » أمر التجوال فى البحر الأحمر قصد الوصول إلى أطرافه الجنوبية ؛ وقد وفق هذا إلى اكتشاف البحر الأحمر الجنوبى ، وكان لهذا الاكتشاف أثره فى عصر بطليموس فيلادلف ومن خلفه فى التجارة وفى تزويد

(*) انظر العدد ١٦١ من الرسالة

الجامعة بأبحاث عظيمة القيمة سنأتى على ذكرها فى موضعها — كما عهـد سوتر أيضاً إلى هيكتاتيس الأبديرى ، ومانيثو ، وتيموثيوس أمر دراسة (الميثولوجيا) المصرية القديمة ، ابتغاء تزويد الأمبراطورية البطليموسية الناشئة بما يحتاج إليه كيانها من العقائد

* * *

والحقيقة أن كل هذه الجهود هى دون ما بلغته جامعة الاسكندرية فى هذا العصر من التفوق فى الهندسة على يد أستاذها الأكبر « اقليدس الاسكندرى » وفى التشريح على يد أستاذه الفذ « هيروفيلوس »

وإقليدس أشهر معلمى هذا العصر اطلاقا ، وهو أبو الهندسة كما يقولون ، مؤسس مذهب البحث العلمى ؛ وكتابه « الأصول » أغلط فى صميم المنطق أكثر منها موضوعات فى الرياضة ، واليه يرجع الفضل فى جعل عصر سيده بطليموس سوتر عصر تفوق رياضى عظيم الشأن ، كان ولا يزال له أثره فى تقدم العلم والعقل البشرى

وكان « هيروفيلوس » أبا للتشريح ، كما كان « أبقراط » اليونانى أبا للطب من قبل ، وبفضل هيروفيلوس سجل التاريخ لعصر السبق فى دراسة (الأمعاء) دراسة دقيقة ، وكانت الحكومة تمده بالمجرمين المقضى عليهم بعقوبة الاعدام ليجرى فيهم تجاربه — كما أمدته حظيرة الحيوان الملحقة بالمتحف بأنواع من الحيوان شرحها ودرسها واستنبط من كل ذلك طريقة علمية للتشريح ساعدت بدورها على رفع شأن الاسكندرية فى العلوم الطبية

وتآزرت جهود هذا العالم وجهود إقليدس على خلق مكانة للاسكندرية ظلت مقترنة باسم المتحف الاسكندرى حتى وقتنا هذا

* * *

ويجدر بنا أن نذكر أنه بينما كان الاسكندريون مشغوفين بمباحث العلم البحت فى الرياضة والطب وما شاكلهما ، كان الأثينيون مشغولين بدراسة الفلسفة من رواقية وأبيقورية ، أما اشتغال الاسكندرية بالفلسفة فقد جاء متأخراً حين أسس فلاسفتها مذاهبها الخاصة التى أشهرها الأفلاطونية الحديثة وسنعرض لها فى بحثنا هذا بكثير من التفصيل

* * *

كانت لبطليموس سوتر شواغل سياسية الى جانب انهماكه فى رفع شأن الاسكندرية ، وأهم تلك الشواغل منافسته لديمتريوس ملك مقدونية ، لانتزاع السلطة البحرية على البحر الأبيض الشرقى من يده ، وما لبث حتى انتزع قبرص من الملك المقدونى وجعلها مركزاً لأسطوله ، وغدت له بهذا سيطرة غير منازعة على الياه الشرقية من البحر الأبيض . وكان من شواغله أيضاً رغبته الملحة فى نقل جثمان سيده « الاسكندر » الى مصر ، ابتغاء الفخر بحيازة جثمان العاهل العظيم ، ولم يهدأ لسوتر بال حتى تم له ذلك ، وبهذا خلا نهائياً من مشاغله الخارجية ، وخصص كل عنايته بعد ذلك للمكتبة والمتحف اللذين نالا من ماله وانتباهه الشىء الكبير . ومن أمره أنه شغف مع المشغوفين بالدراسة والتصنيف ؛ ومن المعروف عنه أنه وضع مصنفاً فى حروب الاسكندر الأكبر التى ساهم فيها كأحد قوادها . ويصف (أريان) مؤلف سوتر بأنه من أدق المراجع وأوفاها فى هذا الشأن ، ويضعه فى رأس كتب المراجع التى صدر عنها تاريخه ، وقد يكون هذا حقاً ، كما قد يكون ملقاً للملك المؤلف

والمذكرات الخاصة التى يضعها القواد عن أعمالهم فى الحروب يغلب عليها المبالغة ، وحسن تقدير تلك الأعمال وتعظيم نتائجها مما قد يكون إغراقا وتورطا فى الباطل ، وهى لهذا لا يصح أن تتخذ سندا من أسانيد التاريخ إلا بكثير من الحيطة والحذر . وينسب الى نابليون الأول شىء من هذا فى مذكراته التى كتبها عن نفسه ، ولم يتحرر يوليوس قيصر من مثل ما ينسب الى نابليون فى مذكراته عن « الحرب الغالية »

ويذكرون أن سوتر كتب أيضاً عدة رسائل من الشؤون العامة فى عصره نشرها « ديونيسو دورس » أحد تلاميذ « أرستاركاس » العالم الاسكندرى ، يؤسفنا أننا لم نعثر على شىء منها حتى الآن

* * *

وفى أواخر أيام سوتر كان لا بد له من تسوية مسألة وراثة العرش ، إذ كان له أكثر من وريث ، وكان أكثر هؤلاء الورثاء خطراً على العرش البطليموسى « بطليموس » ابن له من يونانية ، أخذ ديمتريوس ملك مقدونية الموتور يشد أزره ويناصره على بطليموس « فيلادلف » . وكان النزاع بين هذين الوريثين نزاعا بين روحين مختلفتين : روح مصرية ، وروح يونانية ؛ وكان انتصار إحداهما على الأخرى انتصاراً لأحدى الروحين ، وتحديداً لمستقبل البلاد . وكان ميل الملك الأب مع ابنه فيلادلف ، وكان هوى الشعب مع الأخير إذكاء للروح القومية الجديدة التى بدأها وارث ملك الاسكندر فى مصر سوتر العظيم ، وإنهاضاً لمدنية هلينية الأصل حقاً ، ولكنها من حق الاسكندرية ، ومن جهدها وإحيائها . كان الملك الأول يأنس فى الملك الابن فيلادلف سياسة مشابهة لسياسته ، أساسها المحافظة على الصبغة المشتركة التى جمعت

بين اليونانية الهلينية والمصرية الفرعونية ، والتي حرص البطالسة على التمسك بها كأساس للحكم الجديد ، لا مناص منه ، إبقاء على دولتهم من أن تبيد

والذي يتأمل كيف عنى سوتر بتربية ابنه فيلادلف على أيدي خير الأساتذة ، يرى كيف كان يحرص على أن ينتهي ملكه إلى هذا الوريث دون سواه ، وقد كان أن نزل سوتر لابنه فيلادلف عن العرش ، ولكنه ظل يظهر في بلاط ابنه مدة عامين كأحد الرعايا ، ومات عام ٢٨٣ ق . م مخلفا على الزمن سجلاً حافلاً بالحوادث الجسام قلّ أن تتوفر لحاكم

استطاع سوتر أن يركز دراسة العلوم والآداب والفلسفة والطب في عاصمة ملكه ، ولكن هل استطاع أن يجعل الاسكندرية كعبة الفنون في هذا العصر ؟

إذا كان لنا أن نحكم بالشواهد التي بين أيدينا وهي تلك النقوش البديعة التي ترى فوق العملة المتخلفة عن هذا العصر في دور العاديات ، لما تأخرنا عن الحكم قطعا بتقدم الفن في ذلك العصر ؛ غير أنه لا يجب أن يغيب عن بالنا ونحن في هذا الصدد أن الفن الاغريقي كان عليه أن يغالب فنا من أقوى الفنون التي عرفها تاريخ العمارة هو الفن الفرعوني . والشاهد بوجه عام أن المباني التي أقامها البطالسة خارج الاسكندرية روعي فيها أن تكون فرعونية الصبغة ، ولكنها لم تخل من التأثر بالفن الاغريقي ؛ ولم يكن للبطالسة من ذلك مناص ، تشبهاً بالفراعنة وإرضاء لذوق الشعب المصري الذي لم تنسه الأحداث السياسية قوميته ، ولم يجد على مرور الزمن أبطالاً غير أبطاله ، ولم يعرف عنه أنه أسلم القياد كله للمدنية الدخيلة ، ولا سيما للجانب الديني منها ، بل بقي محافظاً على دين أجداده محافظة تامة . لهذا ظلت المباني ذات الصبغة الدينية على النمط الفرعوني

تأثر البطالسة بالديانة المصرية أكثر مما تأثر المصريون بالفن الاغريقي ، ولذلك بقيت الصبغة المصرية كما أسلفنا ظاهرة في الفن الذي عرف عن العصر البطليموسي ، إلا في الاسكندرية ذاتها ، حيث كان كل شيء يونانياً صرفا ؛ فأقيم في الاسكندرية في هذا العصر المتحف والملعب والمسرح والسيما حيث دفن الاسكندر ، وكانت كلها من غير جدال آية في إبداع الصنعة الاغريقية ، رغم ما يحاول البعض إشاعته من تأخر الفن في هذه الفترة من الزمن

والأدلة المادية على تقدم الفن الاغريقي في مصر في هذا الزمن ما أبدعته يد نحات لتابوت من الرخام البديع الصنع مايزال محفوظا في متحف القسطنطينية لملك مجهول الاسم من ملوك صيدا ، هو تحفة من تحف الحفر وحذق الألوان ، وتلك المشاهد التاريخية التي ترى محفورة على الأحجار تمثل المعارك بين الفرس والاغريق ، إلى تلك الصور الرمزية التي قصد بها الاشارة إلى امتزاج الشرق والغرب عن طريق الحضارة الاغريقية ، إلى مناظر الصيد وغير ذلك مما لا يفوقه سوى « البارثنون » في أثينا

وأغلب الظن أن الاسكندرية بما توفر لها من سمو المكانة لا بد أن تكون قد استهوت أمهر البنائين ، ورجال الفنون حيث بلاط سوتر وفيلادلف وعطاؤهما المغدق لكل من برز في ناحية من النواحي ؛ ولا شك أن الاسكندرية عروس البحر الأبيض المتوسط لم تكن إلا من خلق هؤلاء الفنانين وإبداعهم

وقد كتب م . شربير مقالاً ممتعاً عن فن نشأ بالاسكندرية وتقدم فيها ، وانفردت به ، هو صناعة الأواني الذهبية والفضية التي تتخذ عادة مقياساً لتقدم الحرف اليدوية ، والتي لا تزال شاهدة على قولنا بين محتويات دور الآثار . ويحاول هو أن يثبت أن الاسكندريين كانوا الأساتذة في هذا المضمار وفي غيره . فمن رأيه أن أسلاف « بنفنتو سليني » الايطالي ، والمدرسة الايطالية التي زعيمها هذا الأخير حاكت فن الاسكندرية في الشعر والفن . وهو يدلل بقوة على حب الاسكندريين للطبيعة وتقديرهم لروائعها ، وعلى أن الاسكندرية كانت حلقة الاتصال بين العلم والفن ، وبين القديم والحديث ، وبين الشرق والغرب .... الخ

ليس الفن في ذاته ناحية من نواحي نشاط جامعة الاسكندرية ، ولا هو عادة يتصل بالدراسة الجامعية اتصالاً مباشراً ، ولكنا سقنا هذه الكلمة القصيرة عن الفن الاغريقي الاسكندري ، لأنه جانب من جوانب المدنية ، كان يستلزم من الاسكندريين ولا شك إلماماً بالأصول الهندسية التي لا غنى لفن العمارة عنها . ونحن وإن كنا لم نحصل على ما نقطع الرأي به من أن الهندسة التي اشتهرت بها الاسكندرية منذ عهد اقليدس كانت تطبق ويستفاد منها عمليا في فن العمارة ، إلا أننا نرجح إمكان استفادة الفن من هندسة إقليدس استفادة كبرى

ولنا في بعض مقالاتنا التالية عود إلى نقل إيطاليا وخاصة جامعة « بدوا » في العصور الوسطى عن جامعة الأسكندرية نظامها والكثير من تراثها الفكري حيث شاع منها إلى أوربا من قطر إلى قطر ومن عصر إلى عصر .

(حقوق النقل محفوظة لصاحب المقال)

ابراهيم مدكور